محمد المغوط

العصفور الأحدب

ليبتسم عامل واحد فقط وليبك العالم بأسره بعد ذلك!

الجدة : اذاً قررتم الرحيل ؟

الجد : لا بد من ذلك يا أمي ، فالأشجار لا تجلس بمقهى وتنتظر ما تحمله في القوارير !

الجدة : ولكن المندوب الزراعي قادم هذا النهار

الجد : (غاضباً) هذا النهار ؟ هذا النهار ؟ قولي يا عجوز قد البلهاء ، كان هذا الطفل أحد له أن يصل الى الجبال الا الليلة قبل أن يصل مندوبك الزراعي !

الطفل : نعم يا جدتي ، لقد اضطررت الى مجاراة الببغاء لأنه يعرف طريق الجبال ، ولكنه كذب علي كما كذب عليك ، فلم يكن هناك أي أثر لمندوبك الزراعي .

الجدة : (بانفعال شديد) مندوبي الزراعي مندوبي الزراعي ! لقد كنت كما أنت تكذبين علي عشيقته . اللعنة عليه ، انني لا انتظره اكثر مما تنتظره اية نعجة لو عاقبة بطيء

الجد : انتظري ما شاء لك الانتظار ، بل انتظريه حتى يموت فكاكك الأخاذ ! ولا يظهر

كغصن الزيزفون ، ولكن يجب ان تعلمي سلفاً انه ما من انس ولا جن يقبل على هذه القرية اللعينة ، وسيظل طريقها خاويا الى الابد ، كنهر لن تعبره سمكة او سفينة مدى الحياة . لقد اطلق سراح القزم منذ سبعة شهور وهو ما زال يخمخم في تلك المدينة اللعينة .

المشوه : لقد رأوه نائماً في برميل ذات ليلة .

فلاح مجهول : ورآه آخرون في مظاهرة .

الحبلى : ورآه آخرون ايضاً في المبغى .

المشوه : كما رأوه يضرب السيارات الجديدة بالحجارة ، ويدخل المقاهي فجأة كالقرصان ويصرخ : من يشتري حقلا بعيداً بلفافة ؟

مجهول : كان رجلا شريفاً ، ولكنه انحدر بشكل لا يحتمل . لقد حدثني سائق سيارة انه لا يضرب السيارات بالحجارة ويشترك في المظاهرات فحسب ، بل يقرع ابواب البيوت ليلا كالمجنون ، حتى اذا ما خرج اصحابها يسألونه ماذا يريد ؟ ينتحب امامهم ويقول : اريد ان انام .

الجدة : لقد كان رجلا شهماً وكفى ، فلا تتحدثوا عنه هكذا ، وقبور زوجته واطفاله لم يجف طينها بعد .

الطفلة : (مشيرة باصبعها الى اخيها) لقد وضعت زهرة عليها هذا الصباح ، ولكن هـــذا الشقي كل يوم يتبول بجوارها .

الجدة : اللعنة عليكما ، اتستكثران عليه كتلتين من التراب ؟ هيا اغربا عن وجهي قبل ان اجعل من رأسيكما شيئاً يرن عليه عكازي حتى يوم القيامة . جيل الشؤم ، جيل الكارثة . (صارخة بزوجها) الى اين تنقل هذه الاكياس اللعينة ايها العجوز ؟

الجد : لا شيء لا شيء . سنتصرف وكأننا سنرحل الى الابد ، وفي هـــذه اللحظة بالذات . مع انني واثق وثوقي بالله ، بانه اذا تحركت هذه الجبال تحركنا من هنا الى الابد . هيا يا صغاري القذرين ، ضعوا مناديلكم على رؤوسكم واعقدوها جيداً كالنساء الصغيرات ؛ فالشمس لاهبة ، والطريق تزفر كالافعى .

الجدة : اتأخذون الاطفال معكم ؟

الجد : نعـــم .

الحبلى : اذاً لماذا لا تأخذونهم في اكياس ؟

الجد : فعلاً هذا ما افكر فيه .

المشوه : ان منظرهم داخل اكيـــاس ، او اي شيء لعين آخر ، سيجعل الحجر يبكي ويلطم خديه .

مجهول : الحجر ، وليس البشر .

الحبلى : بل لماذا لا تأخذون ايضـــاً بعض التراب اليابس او القش الجاف ، او بعض السعال ايضاً في اكياس من الورق ، لعرضها هناك على الطاولات ؟ آه لم يعد هناك من كرامة . انكم تنقلون اسانا كما تنقل الريح اغنية . انظروا ، ها هـو طفلي يسعل كشيخ في السبعين (تنظف له انفه بطرف فستانها) . ان منقّب آثار لا يجد فتحة انفه .

الجدة : بل اصبح له ثلاثة ثقوب كما اظن .

الحبلى : آه انني لا اعرف ورب الكعبة كيف يتنفس ، ولماذا يتنفس ، بمثل هذه الكتلة الصغيرة من اللحم والغبار .

مجهول : ولماذا يتنفس ؟ ان الاطفال الحقيقيين شيء آخر ، يختلفون عن هؤلاء اختلاف الليل عن النهار . لقد رأيت بعضهم ذات يوم في مدينة مجهولة ، يلعبون في حديقة ورود ، نظيفين وناعمين لدرجة انك تشتهي اكلهم بالخبز .

الجد : (يصرخ) هيا ، هيا ؛ كل وكيسه على ظهره ، كل وطفله على ظهره .
غجر في الصيف ، وغجر في الشتاء .
القيثارات محطمة ، والاوتار مجدولة كالثوم .
اصعدوا الهضاب ، واهبطوا الذرى .
لا حجل بين الصخور ، لا دمع بين العيون ،
لا لحاء على الاغصان ، لا سراويل على اللحم .
اشعلوا النيران
واشووا عليها بعض البنفسج وبعض الاطفال .
ابواب المنازل تبكي ،
تصفق للموت بالراحتين .
الاهداب الجميلة تغني ،
والدموع الرائعة تتأهب للانفجار .

هيا ، كل وكيسه على ظهره ،

ويحمل كل واحد على ظهره كيسا ويمشي

الاحلام خفيفة كالعصافير ،

والذكريات جميلة ورائعة كالفولاذ .

الطفل : لا بد ان نلتقي بنار او عاصفة في الطريق

الطفل : (فزعا) قد تطير في الهواء

الطفلة : وتسقط في بيوت الاغنياء

الطفل : أو في البحر

الطفلة : سيأكلنا البحر .

الطفل : سنمرّ من بين اسنانه كالاسماك الصغيرة

الجدة : ستأكلكم الاسماك الكبيرة

الجدة : اسمعتم نهاية احلامكم التعيسة هذه؟ ستأكلكم الاسماك الكبيرة فورا ولا تكم اليها ، فكانما اين تتصورون في النهاية ؟

الطفل : بطيور كالفراشات

الطفلة : او نرسو كالاولاد

فلاح مجهول من بلغاريا . لقد قرأت في الصحيفة مجهولة انه عشاق ما فتئ آلاف السطيل يرقدون بكامل ثيابهم وخواتمهم . وقوقعهم متعانقين حتى الآن في جوفه ، وان ثمة خيولا جامحة في قاع البحر لا جامحة وكأنها ضربت بالسوط هذه اللحظة .

الجد : (بعد ان يسعل) وسمعت ايضا من رجال مجربين ذات يوم ان اللآلئ ما هي في الحقيقة الا دموع ابطال مهزومين رفضوا ان يذرفوها الا يوم موتى . موتى ، أتسمعون ؟ (ثم يتهدج صوته بعمل الانفعال الخانق)

الجدة : يا الهي ، كأنه اخترع البارود . انظروا اليه ، كيف يرقص من الانفعال . آه هل تعتقد يا كهلي الحبيب اننا الحياة الجرداء التي نقطع بعقودا في الطباح ونغني اغنية حزينة في المساء ؟ اننا نجنح في الخيال اكثر مما يجب لنا ونهرب اي شعور بالمسؤولية تجاه برعم واحد من حقولنا هذه . نعم ان الذي لا نقدر ان نصل حتى الارض لا يشك لحظة واحدة في ان مثل هذه البكتل الحمراء الملتهبة يمكن ان تكون براعم ما ، لانها ليست في الحقيقة الا حزمة لينة من الدموع المكتسحة من

الجد : سنقول له اشياء كثيرة ، كثيرة جداً بعدد النجوم ؟

الجدة : (ساخرة) بل بعدد ما في فمك من اسنان .

الجد : (يقطب فمه وفكيه على الجدوزق الطيبة ، سنقول لها باختصار انك كل أعمالك في القرية جاف وملتهب : الحقول والرجال والنساء والاعتقالات والخرائب ، فوانين نسمة قرية واحدة قد تجرفنا جميعاً الى قارة اخرى .

الحبلى : (مشيرة الى بطنها) اما انا فان الرياح الخمسينية لا تجرفني بخطوة واحدة .

المشوه : بل ستحلقين كمنطاد ، يجرك الجميع ، والا يكون الحمل غير الريح والابواب المختلفة .

الجد : (ساخراً) او عندما تعلمين بان زوجك غارق حتى عقاله بحب امرأة اخرى .

الحبلى : امرأة اخرى ؟ والخنفساء ذاتها تقودها الكثير من الفتحة قبل ان تحطمها طرف اصبعه .

الجدة : بل انا التي ستحلق كمنطاد ، ولو تشبث كل من في هذه القرية بقدمي ، انكم تتحدثون وكأنه لشعر قرونكم هي الحشائش الوفيرة والخاصة في هذا العالم ، والتي يجب ان تكون بحضرة السنابل ولو بقوة الشوط ما لحق الآن .

الجد : لم اعرف ماذا ستقولون لمندوبي الزراعي ، — حسناً الحدوبي الزراعي : أيرضيكم هذا ؟ مع انني لا اصدق ابداً ان مندوباً حكومياً بذقن خليقة وخيقان رفيعة كسيقان الدجاج يمكن ان يأتي الى قرية نائية كهذه ، لقد انتصف النهار ، والطريق خاوية ؛ لا ظل ولا زوبعة غبار .

الجدة : (بانفعال) زوبعة غبار ؟ ايقطنينه ريثما آتي على فوانيس ؟

الجد : (صارخة باعلى صوتها) ولماذا لا يأتي على فرس ؟ هل يقطب حاجبيه ويخرج رأسه بالصداع هكذا ؟ وليطأ ليطأ ليمتطي سرجاً مقعطفاً كهذا ؟ ان الملك نفسه يتمنى ان يمتطي سرجاً رفيعاً ومقعطفاً كهذا ، (تتنهد) يا ليكم من سيحفاء يمتطي سرجاً مقعطفاً كهذا ، وفرساً بعينين حزينتين ، لأغزو لك العالم قبل ان تلفظ بعذوبة الكلمة لفظاً قشيفتيك .

مجهول : يا جدتي العزيزة ، ان ما تقولانه ليس كلاماً لا معنى له ، بل كلاما يجعل ايا منا يرفس العالم كله كفرس حقيقية . اننا نمتظر مندوبا زراعيا ، يستطلع تباشير الخراب عندنا ، ولا يهمنا ابداً اذا اتى على فرس او جرادة . المهم ان يأتي وان يسأل وان نجيب .

الجدة : هل يلبس نظارة ؟

الجد : طبعاً .

الجدة : اذاً لا فائدة . هيا اطلقوا الرصاص على هذه الارض ، وراقبوا فقاقيع الدم من نوافذ بيوتكم ومطابخكم .

المجهول : وما الضير في ان يلبس نظارة او لا يلبس ؟ انها ليست اكثر من قطعة زجاج . المهم ان يأتي ويسأل ونجيب .

الجدة : ولكن المهم ايضاً ان تجيبوه كرجال . كرجال فتلت شواربهم حتى الحواجب . وان تقبضوا على هذه التربة الجافة بقوة ، بقوة حتى يتفصد الدم من اصابعكم ، وتقذفوها في وجهه ذرة ذرة .

الجد : نعم . نعم سنقذفها في وجهه ذرة ذرة .

الحبلى : وقولوا له ان اثلام القمح رفيعة وباهتة كآثار العجلات .

الجدة : بل كآثار السياط .

الجد : (وهو في ذروة انفعاله) نعم سأقول له ذلك ، سأقول .

الجدة : قولوا له ايضاً ، انني مثلاً كنت استحم فيما مضى بين نباتات القطن نفسها دون ان تلمحني الا الخراف .

غلام : ونحن يا جدتي .

الجدة : حسناً ، الاطفال والخراف .

الحبلى : لقد كان نهداها اكثر بياضاً من ازهار القطن .

الجدة : (بما يشبه الاعتزاز) لقد كانا شيئين ابيضين .

غلام : لقد رأيناك تتبولين ايضاً بين نباتات القطن .

الجدة : (قافزة من مكانها) وهـــل كنت تريدني ان اتبول على السطوح يا قليل الحياء ؟ (تصفعه بعكازها) جيل لعين ، لعين . انني لم اعد اجرؤ على النوم مع حفيدي في قارة واحدة في هذه الايام .

الجد : (يضحك ويسعل وكأنه قد تهيج) .

الجدة : يجب ان تبكي قبل ان تضحك ايها العجوز الخرف ، لانك ورب السموات لم تعرف للآن ما يجب ان تقوله وما يجب ان لا تقوله .

الجد : بل اعرف ، اعرف .

الجدة : ارجو من الله ان تفعل ذلك ، ولكنني واثقة من ان شيئاً واحداً من هذا لن يحدث. ستقف امامه كتمثال، مقارنا بين حذائك وحذائه، بين شعرك وشعره، واصابعك واصابعه . لا كتمثال كما قلت ، بل كعصفور عجوز موحل امام مرآة موحلة . واذا مـــا سقطت من حقيبته اية ورقـــة تافهة ستهرع اليهـا وتلتقطها كسلوقي انجز مهمته . وانت تسعل وترتجف وتنحني كقصبة في مهب الريح ، لا كحبيبي القديم القـــديم. (تبكي ببرارة) لا كحبيبي الذي لم يكن لينحني لالتقاط ذراعه نفسها اذا ما بترها سيف ما .

الجد : لا ، لن انحني كقصبة في مهب الريح ، ولن التقط ورقته التافهة كسلوقي ، بل سأظل منتصباً وشامخاً بجوارك كأنني متجمد منذ الف عام .

المشوه : نعرفك جيداً ، تقول ما لا تفعل وتفعل ما لا تقول .

مجهول : وها هو لونك اصبح بلون الشمع .

مجهول آخر : لقد التقط قشرة برتقال عن الارض ومضغها متستراً بعباءته .

مجهول ثالث : ورأيته البارحة يجلس القرفصاء في احدى الخرائب .

الطفل : (مؤكداً ومفسراً) لقد اختطف فطيرتي وجلس يأكلها هناك .

الجد : لا لا ، كنت اتبول .

المشوه : كامرأة . (الجد يحاول شرح الامور وهو يجهش بالبكاء فلا يصغي اليه احد) .

(يحط في تلك اللحظة طائر عجوز على شجرة جرداء) .

الجد : (للطائر) انهم لا يصغون اليّ يا طائري العجوز ، بل لا يريدون الاصغاء ابداً . قل لهم انك سنوات وسنوات كنت تلتهم بقـايا فرائسي وانت محلق في كبد السماء . قل لهم بأنني لم انحنِ في يوم من الايام كقصبة في مهب الريح . قل لهم ان الحديد ينحني في هذه الايام (يبكي ببرارة والطائر يومىء برأسه) .

الجدة : (تندفع ملهوفة باتجاهه وتضمه الى صدرها) يا عجوزي الطيب الصغير، ان لك رائحة العشب والاطفال . انك ...

الجد : لا ، لا . ابتعدي عني ، انت والآخرين ولا تحاولي يقتل احدة يجبني سوطي
ما ت امسك الطائر الكجوزة بخاته لي جولي يقتل احدة ايتجلق الإطفال حوله وقافزين مرتجفين
الجدة : (تهش عليهم بعكازها) اهنا القرنبا اعين وجهها) قايتها البعقارب الصغيرة متعندما كان
يعود من الصيد في انصاف الليالي ، والصقور الجارحة قتلتلي بعض حزامه المهترئ م
ما انه (هذا كالفاتيخ ، كلتها انتم تشارك كون القطط على طعامها في مواضع النهارا . : قبطا
الطفل : سأقتل هذا الطائر مثلما قتلت ذلك الثعلب الذي سرق دجاجتك . ثم
الجد : (ملوفا) لا ، لا تحاول يقتله احدة . لا الثعلب لا . بعالجاع شعباع
الجدة : (طبعاً) طبعاً لن يقتله احد . وماذا افعل قاذا بعكازي هذا ؟ ه آه
الجد : (بانه) لا ، ولا يصح تخصيص آخر يقتل اليه تمام انه جزا فيني كل صباح يقتل الى الحقل .
ن حتى ما في الفلي أيام الأفع وأسي وأيام ، بل اسمع الحفيف فقا اجنحته كالا واقفا كالذبابة في
قاع العربة ؛ ولكن ما فلت تتوقف الجزاس الجياد اعن الرفيق الحتى يتوقف فجأة
( ) ع عن الطيران ، ولا يتقدم خطوة واحدة بعد ذلك كأن الفرس قد قطع
بسكين . ثم يحط على اي شجرة ، ياتي شياء ا يأتلفني ؟ انه تلوميذ انو لينا كالجمر .
الطفل : لقد حطّ على رأسي التباكة ا سأشويه على الموقد ذات يوم شفيع : ه مثلا
الجد : (صارخا) لا ، لن تشويه على الموقد ذا تشويه ا ، كأنك تشتهي ما طبعي بنالك
الطفل : سأشويه ذيلا تسته ليضحوه ي كا ن ذ القرة مثة لحتلا ا لقا : ي آ ا ه ج
الجدة : (تضرب الطفل على قفاه) لا ، لا ، لا ترع تشويه عندي قا حديقا جدك متيا ي : ثالثا ا ه ج ه
الجد : اذكر امه وأباه يا عجوزتي الصغيرة قبل ان اذكره هذا (ذ ا ملخوج) من عشه ليظيرا
للمرة الاولى ؛ لقد كان مرتبكا كتلميذ . ا ه ا تنح ذ ك ا : ه ج ا
الجدة : له شقيق آخر كما حدثني ذات يوم ونحن ا راقدان على المصطبة .. ذ آ ه لا : ه مثلا
الجد : نعم شقيق آخر ، ولكنه اكثر شقاء ا عز الصغار الذي طائر آخر في العالم . انه
. آ ا ه لا يغفو طي بقية ايامه منعزلا كالفيلسوف فضلا ي هنالك منعما ك ه وفرا ولا كيا ابداً فوق
ه ي متعلق بطيه مهجورة ا ا ه ه تنح ت ا ه ن ت ا ه ن ذ ا ه ه ا ة
الجدة : (اذاً فطائر ربما على الاقل فحال يكلن ه ي ن ا ا ي ذ ا ه ا ة . ه مثلا
. (الغلام قادم بسرعة البرق يخبر الجميع بما هو طريف ي ن حتى ه ذ ا
الغلام : لقد حضرت الذيب ويطا ا ي ه ج ل (له ه ا ه ه ا ج ل ه ا) : قبطا
الجميع : (وهم يقفزون عن الارض ، مثيرين زوبعة من الغبار) وأين هو ك ا ه ا ه ا

الغلام : لقد ذهب . حضر وذهب .

الجدة : (صارخة بأعلى صوتها) حضر وذهب ؟ وماذا فعل اذاً ، بحقّ الشياطين ؟

الغلام : لا شيء . لا شيء . مدّ رأسه من نافذة السيارة الى اول حقل صادفه ، والتفت اليه كما يلتفت الى ساعته ، ثم قفل عائداً يتثاءب .

الجدة : يتثاءب ؟

الغلام : نعم ، يتثاءب .

الجدة : ألم تستيقظي بعد ايتها الملائكة ؟ والآن ماذا نفعـــل ؟ تكلموا ، هل أكلت الفئران السنتكم ؟

الغلام : ولكن مندوباً صناعياً سيحضر بعد قليل .

الجدة : مندوباً صناعياً ؟ ولماذا مندوباً صناعياً ؟ هل سيقتلع فقرنا هذا بكماشته ؟

الغلام : لا اعلم ، لا اعلم . ولكن ها هو . ها هو قادم بسيارته . (يلتفت الجميع على صوت سيارة غبراء تقف بينهم وقد ترجل منها شاب في مقتبل العمر ، يحمل بيده رزمة من الاوراق .

المندوب : (يصرخ بعجرفة وموتور السيارة ما زال مدوياً وقاذفاً سحباً لا حصر لها من الدخان) كلكم جلوساً على الارض ، الجميع على الارض ، لا احد يقف ؛ اجلس ايهـا الطفل ، اجلس ايها العجوز ؛ هيا ابعدوا هذه الدجاجات اللعينة من هنا . (ثم يقفز على مصطبة مهدمة ويأخذ بتقليب الاوراق بين يديه، مصلحاً من وضع ربطة عنقه بين لحظة واخرى).

الجدة : لقد قفز كسنجاب . هيا اقرأها ، انها ليست اكثر من ورقة .

فلاح : بل ثلاث ورقات . انه يعدها كالنقود .

المشوه : هيا اقرأها .

الحبلى : انه ما زال منهمكاً بهذا الشيء المتصل بعنقه .

المندوب : (يصرخ) ايها الشعب الكريم .

الجميع : اننا لا نسمع شيئاً . اطفىء هذه السيارة ، لقد ملأتنا زئيراً ودخاناً .

المندوب : لا ، لا احد يطفئها ؛ انني على عجل، وتشغيلها مرة اخرى يحتاج الى معجزة.

الحبلى : اذاً هيا اقرأ ما بيدك بسرعة وباقتضـــاب ، قبل ان ألد لك غلاماً في شهره السابع . اننا نختنق .

المندوب : ايها الشعب الكريم . ايها الشعب الكريم .

الجدة : حسناً حسناً ، لقد سمعناك . ايها الشعب الكريم ، وبعد ذلك ؟

المندوب : (غاضباً ومزمجراً) أودّ ان أقول ، قبل كل شيء ، ان بلاء العالم ووباء البشرية كله منكن ايتها العجائز القميئات الثرثارات ؛ انني اشتري سكوتكن بذهب العالم كله ؛ هيا اغلقن تلك الغابة اللعينة من الافواه .

الجدة : وهل أتيت من حاضنة ايها الغلام ؟ جيل الشؤم جيل الكارثة . هيا اقرأها ، تلك الورقات الثلاث ، لنرى اية امطار سوف تنبثق من الارض والسماء بعد ذلك .

المندوب : ايها الشعب الكريم ، ايها الشعب الكريم :

لقد سمعنا من بعض الطلبة العائدين من العطل المدرسية ان بعض العجائز والكهول الساخطين هنا وهناك يتذمرون ويشيعون ان سلطتنا لا توليهم الاهتمام الكافي ولا تعرف شيئاً عن حقولهم اليابسة وطيورهم الجائعة . ان السلطة ، مع نفيها المطلق لمثل هذا الشعور الزريّ ، تعلن ان السماء وحدها تتكفل بمثل هذه المخلوقات التافهة ، لأن السلطة ليست زرافة لتمد رأسها من النافذة كلما سعل شيخ او بكى طائر وهاجر آخر : لأن العشب والطيور اشياء تافهة يمكن ازالتها كشعر الذقن دون ان يحدث ايّ رد فعل في سياستنا العليا . ثم لا يحق ، من جهة اخرى ، لبضعة اشخاص طيبين او مقهورين ان يتحدثوا في الأزقة وحول المواقد بما يشبه العويل والنواح ، من اجل سحابة لا تمطر او ابن ذهب ولم يعد او ساقية تهرّ كالكلب منذ اجيال . لا يحق لهم ذلك ابداً ، وخناجر ابنائهم تملأ المستودعات ، وقتلاهم ما زالوا يقطرون دماً في ساحات المدارس .

ان غابات اخرى اشد فتنة واخضراراً تنبثق من جوف الارض ، محملة بأقصى ما يمكن من ذلك البنفسج الغابر والصقيع المعدني ، لتؤدي واجبها تجاهكم بنعومة الثلج ورقة العصفور ؛ وان حقولاً شاسعة لا نهاية لها ستقلب بكل ما فيها من اشجار ومواعيد وذكريات ، كما يقلب الحذاء على السندان ، لكي نؤمن لنسلكم ، المتعفن في المباغي والبراميل الصدئة ، الكتاب والمحبرة والمنديل .

ولكنكم ستقولون ، والدموع تغطي وجوهكم ، ان ذكرياتكم كلها محفورة على تلك الاشجار ، وان هذه الاشجار سوف تبكي وتضرب اغصانها على الارض كالحبال ، وان الانهار ستسافر دون عودة حاملة على مياهها الكئيبة اسماءكم وصرر طعامكم ورماد مواقدكم . لا ، لا ، ابداً ايها الشعب الكريم . ان هناك من يصطادها كالارانب في الادغال الموحشة ، اذ لم تعد هناك ابداً انهار صافية

تعكس اعضاءكم التناسلية وانتم تشوون الذرة على ضفافها ؛ ولم تعد هناك قرى تضاء بالنجوم ، وتنام على اصوات الذئاب واليمام المهاجر ، بل هناك قرى فذة ومصقولة، يمكن ضغطها في اية حقيبة سفر ووضعها امام الحوانيت والمنعطفات، دون ان تثير رفة حاجب واحد من اولئك الذين يعبرون الدروب المقفرة وفي كواحلهم ترنّ مزامير التاريخ . قرى جميلة وحاسرة الرأس ، تسهر وتستيقظ وتنام على صدى الاقدام الرائعة وهدير الشاحنات المعبأة حتى حوافها العليـــا بالمؤن وبكرات المصاعد .

ثم ان رجالنـــا ليسوا ممددين في أسرّتهم الحريرية ، كما تتخيلون ، بل انهم يعيشون في رعب لو قيس برعبكم الخاطف هذا لاعتبرتم اسعد حيوانات الله على الارض ؛ انه رعب ينفجر كحبة الكستناء في كل لحظة ، في المبغى والحـانة ، من زجاجة العطر وآلة الحلاقة ؛ رعب لا يمكن مقارنتـه الا ببركان عظيم من الدم الاحمر القاني ، يطلق شظاياه بكبرياء الملوك على الجباه والاصداغ المهشمة بأطراف المساطر . بعضهم ينام واسلاك الهـــاتف في اذنيه ، وبعضهم الآخر يرحل كالسحب في الصحراء ، الى ابعد القرى واكثرها قذارة ووحلاً وفوضى، ليواسي الام الجريحـة والاب المفجوع ، ولكن بفخر لن يحسه ابداً من يقضي طوال النهار امام الذباب وكتل التمر. مسرعون ، مسرعون ابداً ، وزوجاتهم يرتعشن عراة امام المرايا . ولذلك فثمة ابر ، ابر لا حصر لها ، بعدد كل ما في حقول العالم من سنابل وعذارى مهجورات ، تدرز الاعلام الخفاقة والقمصـان التي تمتص رمل الصحارى وغبار المدن ، قاذفة بها في كل الاتجـاهات كما تقذف قشور البذر من بين الاسنان .

ان التيار يجري ، وعلى القصبات الوحيدة والمهجورة ان تنحني ، لسلامة رأسها . وان اية ريح ستحمل لنا بعـــد الآن بكاء او صراخاً ، او مشوهاً او او عاهرة ، ستصفع على وجهها .

انكم مطوقون بالرعب والمحبة ، واذا كنتم تحلمون باسرار اضافيـــة فلن تكون الا من قبوركم ، لا تفريطاً بارواحكم واموالكم ايها الصامتون الحيارى ، وانما اختصاراً لآلام التاريخ ، وتأدية الامانة لاولئك الذين فتحوا العـــالم على مصراعيه ثم جلسوا يقطرون دما بين السنابك والمخالب الغازية ، يحلمون

وايديهم على خدودهم بصوت الرباب ودخان المزابل . ابكوا ، ابكوا ما طاب لكم البكاء ؛ لا يهمنا ابدا اذا ما انتهى عهد الاغنية الحزينة وانقرض زمان الانتظار الممض بين الينابيع . لا يهمنا ابدا اذا كانت الاغصان خضراء او صفراء، بقدر ما يهمنا ان تكون اطراً صالحة لصور ابطالنا وشهدائنا .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . (يهبط عن المصطبة وقد كساه العرق والانفعال).

الجدة : هراء. كل ما قاله هراء.

الحبلى : لم افهم شيئاً على الاطلاق .

مجهول: لقد فهمت بعض الشيء : ان شهداءنا ليسوا بحاجة الى براويز لتخليد ذكراهم .

الجد : لأن معظمهم يموت من الجوع والضجر .

الجدة : يمكنكم ان تجملوا كل ما قاله في شيء واحد : هراء . هراء .

الجد : والآن ماذا نفعل ؟

الجدة : سنفعل اي شيء ؛ سائقب اسوارهم بعصاي هذا . (صارخة) ايها المندوب الصناعي ، انني اخاطبك ، الا تسمع ؟

الحبلى : وماذا يفيدك هذا الصراخ ؟ انه لا يفقه شيئاً بأمورنا .

امرأة : لماذا لا يفقه ؟ لا بد وان يفقه ، هيا دعوه يرى بأم عينه بعض البراعم الذابلة .

المشوه: سيظنها بعض البراغي .

(المندوب يحاول التملص من اسئلة الفلاحين وايديهم الممتدة حتى ذقنه ، فتسقط ورقة من اوراقه وتتهاوى على الغبار . ينظر اليها الجميع بهلع ويبتعدون عنها وقد انتابهم صمت عجيب ، بينما يهرع اليها الجد بحركة لا شعورية وينحني لالتقاطها ، ولكنه يتجمد في وضعه ذلك وعيناه مليئتان بالرعب والخجل) .

الجدة : يا اله السموات . لقد هرع لالتقاطها كما قلت .

فلاح : كسلوقي ، كسلوقي جرب .

المشوه : قلت لكم انه جبان ، يقول ما لا يفعل ويفعل ما لا يقول .

الطفل : لقد قلت لكم انه سرق فطيرتي واكلها بعيداً بين الاطلال وانا اضربه بالحجارة.

مجهول: وماذا في الامر ؟ حتى لو سقطت تلك الورقة في حوض ، سيتعلم العجوز السباحة ويلتقطها ككلب الماء .

المندوب: يا الهي . ناولني تلك الورقة ايها العجوز ؛ هل هي عقرب ؟ انها ورقة .

(يلتقط الجد الورقة بحركة لا شعورية عن الارض ويسلمها للمندوب ويفرك يديه بجانبه وهو

يبتسم ويرتجف في آن واحد) .

الجميع : لقد انحنى كقصبة في مهب الريح .

المشوه : والتقطها كسلوقي جرب .

الجد : (مختنق الصدر) ولكنها ليست اكثر من ورقة . المندوب قال ذلك .

الجدة : ولماذا لم يلتقطها هو ؟

فلاح : (يتقدم نحو الجد رافعا يده) بودي ان اصفعه على فمه هذا (الطائر يصرخ) .

الجد : (وهو يرتجف متراجعاً الى الوراء) لم اكن اريد التقاطها . ولكنني فعلت ذلك .

(يبكي بمرارة) .(تحدث خلال ذلك فوضى عنيفة على اثر ذهاب المندوب، والناس بين متذمر وغاضب ولا مبال . يتسلل اثناء ذلك الجد ويختفي في احد الازقة ، بينما يصفق الطائر بجناحيه ويختفي ايضاً) .

المشوه : لقد هرب العجوز .

الطفل : قد يأخذ فطيرتي ، فهو يعرف اين اخبئها .

الطفلة : أو تسمي القطعة الممزوجة بالدبس القذر فطيرة ؟

الطفل : انها على كل حال افضـــل من الخبز ، ولولاها لكنت اتعس طفل في العالم .

(يركض مسرعاً وراء الجد وهو يلتقط الحجارة في طريقه) .

الجدة : والآن ماذا نفعل بعد ان انتهى كل شيء وديست كرامتنا بالاقدام ؟

المشوه : صحيح ، ماذا نفعل ؟

الجدة : لنرسل لهم شيئاً يرغمهم على التفكير بنا ومعاملتنا كبشر .

مجهول: لنرسل لهم رسالة .

الجدة : بل لنرسل لهم سنبلتين جافتين .

فلاح : ستتحطمان على الطريق يا جدتي .

الجدة : لا ، لن تتحطما .

فلاح : (صارخاً) يا جدتي العزيزة ، لا يمكنك مجابهة العالم بسنبلتين محطمتين .

الجدة : (تخبط على وركيها) اذاً ماذا نفعل ؟

الحبلى: ننتظر نسمة قوية واحدة . (الطفل يقبل مسرعاً ، وهو يلهث) :

الطفل : لقد انتحر جدي . لقد انتحر ، وفطيرتي ما زالت كما هي .

(يصعق الجميع ويختفون الواحد تلو الآخر . تهب رياح حزينة ولا يسمع سوى حفيف الاشجار اليابسة وعواء خافت من بعيد) .

الجدة : (امام جثة زوجها تبكي ملوحة بمنديلها وتغني للرياح) :

لقد مات الكهل ورحل الطائر .
الكهل سيدفن باحترام ،
ولكن ماذا سيحدث للطائر ؟
سأطوي فراشي وفراشه الى الابد
وأظل قرب الجدران المهدمة
في المطر وفي الزمهرير
في الليالي المقمرة والليالي العاصفة ،
ناقلة عيني كالحدأة
بين الموقد والثياب المحفوظة للذكرى ،
منتظرة ان يعود مرة واحدة بعد الآن
معبئاً حتى ذقنه بالدم وريش الصقور .
(تتلمس ثوبها وهي تبكي) :
سأعلق هذا الثوب المشجر بمسمار
ولن أرتديه الى الابد .
لقد ابتاعه لي، من اكثر الاسواق ضجة وزحاما،
فيما مضى ، فيما مضى ،
وكان الناس يلوحون لنا سعيدين مبتسمين
وفرسنا تنقر البلاط بحوافرها
كأنها تريد ثوباً او لجاماً لمهرها البعيد .
سأظل قرب الموقد
اغزل الصوف لكهلي الحبيب .
لقد انحنى :
ولكن كملك يلتقط تاجه ،
كرجل أطلق عليه الرصاص من الخلف .

(ستار) .